ابن البطل

قصة بقلم صدقي بزكان

لم تكن الشمس وردية ذلك اليوم وهي تغيب ولـــم تكن هنالك اسراب طيور تتغازل او تطير في نسق ولم تكن البلابل تغرد ولـــم يكن هنالك عاشقان يتناجيان بالصمت ولم تكن هنالك نسائم تبعث النشاط في الجسم ولا حتى اي شيء يصبغ ذلك الوقت مـن النهار بالغروب ، فقد كانت النجوم تتجمع ببطء وتكاد تتكاثف وتكون كتلا مـــن الهواء الاسود منذرة بالمطر ، والدخان الذي يتصاعد مـــن الابنية ينزل الـى الشارع حتى يكاد الانسان لا يتنفس غيرّ الفحم ، وكان الشعراء يطوون اوراقهم ويضعون اقلامهم جانبا ، فلم يكن ذلك الجو يوحي بأي الهام .

وفي ذلك الوقت كان مولود قومندان اوغلـــو (١) يتهيأ لنقـــل بضاعته الى ـ يني شهر ـ (٢) . ففي اليوم التالي كانت السوق ستقام هناك ، وكل الذين كانوا ينوون الخروج من بيوتهم لـــم ينسوا ارتداء معاطفهم ، وحتى الذين كانوا قد خرجوا للتنزه فـــي ـ قزل آي (٣) ـ اثروا الدخول الى السينما او الى احد المقاهي ، هربا مـــن الدخان والفحم والمطر الذي كان سيهبط بين لحظة واخرى ، وفيما كـان مولود يجمع بضاعته من الاواني والكؤوس البلوريـــة والملاعق وادوات المطبخ الاخرى التي كان يحاول ان يرتبها فوق عربته البدوية القديمة بحيث لا تتعرض للكسر ، كان يعلم ان امامه طريقا طويلا كثير التعرجات ليصل يني شهر ، وبصق على الارض :

ـ تفو .. على هذا العمل النتن !.

وعمل مولود متعب حقا ، فهو يعمل ضمن مجموعة مـــن الكسبة تشكل سوقا كاملة تنتقل كل يوم الى منطقة من مناطق المدينة وتقيـــم سوقها بينها ، ومع كل مساء تشد تلك المجموعة رحالها كالفجر الـــى منطقة أخرى واخرى ستة ايام في الاسبوع . وصاحبنا يضيق بعمله هذا فعليه ان يشد كل مساء بضاعته باحكام فوق عربته ويدفعها امامه الـى المكان الذي ستكون فيه السوق في اليوم التالي رغم الهواء والثلـــج وشمس الصيف ، وربحه ايضا موضوع اخر لشكواه فاحيانا لا يربـــح شيئا والسوق تعذبه والسيقان التي تروج وتغدو امامه تحرقه والاذرع البضة والنهود المكورة تجعله احيانا يبيع بلا ربح واحيانا باقل من الكلفة، وحينما كان يصل مقصده كل مساء يترك عربته في فضاء السوق ويمنح الحارس اجرته فيمضي الى البيت ، وفي الطريق يعرج كل مساء علـى دكان بقال المحلة ويأخذ منه خبزا وزيتونا ، ومرة كل ثلاثة ايام زجاجة عرق يقضي معها امسياته ، فلا زوجة عنده لتدفىء البيت ولا طفـــل يملأ فراغه بصراخه ولا صديق يمـلأ وحشته بالحديث ، فهـــو يعيش وحيدا في بيته الخشبي الذي بناه بيديه قرب مجموعات اخرى مـــن بيوت مماثلة فوق تل يشرف على شرق المدينة . وتتكرر حياته هذه ستة ايام كل اسبوع ، ولكنه في أيام الاحد يعيش حياة اخرى ، مثلما يعيش المترفون ومثلما يتمنى ان يعيش دائما ، فهو ينام حتـــى الظهر ويذهب عصرا الى المبغى وينام مع ـ نرمين ـ البغي التـي جعلت منـه صديقـا لها ، ويذهب يوم الاحد الى الحمام ، وكلما يغتسل يسب ويشتم الاغنياء لانه في بيت كل منهم جرنا يغتسلون فيه كلما يشاؤون ، ثم يذهب الى ملهى ليلي يشرب فيه ـ الفودكا ـ ويطلب مـــن كل مغنية اغنية كـــان يسمعها كثيرا في قريته الضائعة بين مئات القرى في شرق الاناضول ، تتغزل بالحبيب الذي يفوق كل شباب القرية رجولة وقوة .

واتم ترتيب بضاعته فوق العربة واحكم شد (الجاور) عليها فقد كان الجو رطبا والغيوم كثيفة والدخان الاسود والريح لا تبعث الا علـى التشاؤم من المطر ، الذي يصلي الناس فـــي قريته لاجل ان يهطـل لتشبع ارضهم فهي فاغرة فاها دائما للماء . والتفت الى زملائه فرآهم جميعا مثله مشغولين بترتيب بضائعهم ، ومد يده الـــى جيب معطفه واخرج لفافة تبغ اشعلها وراح ينفث الدخان في الفضاء وهم بالسيـر ودفع العربة ..

كانت الحياة تسير في الشوارع كالبرق ، كل شيء يمضي سريعـا ما عداه ، فهو حذر جدا من السيارات ويحاذي الرصيف دائما حينمـا يدفع عربته . وقد انتظر مرور الترولي ثم عبر الشارع الـــى الجانب الاخر ، تكاد قدماه تعجزان عن حمله . وكان صرير عجلة العربة يمـــلأ رأسه بسمفونية عتيقة يسمعها كل مساء ، ومرقت بجانبه سيارة خارجة فوقف الى جانب ، فهو حذر جدا من السيارات وهو حريص علـــى ان لا تتكرر معه حكاية اصطدام الترولي به والمرارة التي عاش فيها بعد ان ضاعت عربته وتهشمت اطباقه والايام السوداء التـــي عاشها منبوذا كالكلب في ردهة باردة من ردهات المستشفى الحكومي يعالج الجـــرح الذي كان في رأسه والممرضة الحلوة التي كانت تحرق لبه ، والطبيب الذي كان يضحك منه والضحكات التي كانت تهمس وتشق الظلام كـل ليلة وغرفة طبيب الردهة التي صارت مذبح حبه والليل لم يكن يمضي واعصابه تحترق ولفافات التبغ تحرق الهواء الذي كان يتنفسه واذناه كانتا كأذني فرس اصيل وهو يتتبع الآهات التي كانت تخترق باب غرفـة الطبيب كل ليلة وهو يتخيله ينام مع ممرضته الحلوة وهي تتأوه وتذوب بين ذراعيه ، ويمر وقت طويل وطويل جدا قبل ان تخرج وتدور فـــي الظلام بين المرضى وتحدق عيناها في عينيه وتسأله ان كان في حاجة الى شيء ويصمت وتميد به الردهة ويكاد ان يقـوم ويضربها ولكنه لم يكـن يستطيع غير الصمت فيصمت وينظر اليها ويتمنى ان ينام هـــو ايضا معها . ودفع العربة وعيناه مثبتتان على ورقة اخرجها من جيب سترته الداخلي ونظر اليها مليا .. الاسم مولود قومندان اوغلو ... المبلـغ : خمس وستون ليرة .. سبب استحصال المبلغ : ضريبة سنوية ، واطلق زفيرا طويلا ولعن كل شيء حتى الحكومة وجابي البلدية الذي سلمـه الورقة ... وتطلع ثانية الى اسمه المكتوب فـي اعلـى الورقة ... آه لهذا القومندان ... لو كان يعرف ان ابنه سيكون بائعا بائسا لمـا فكر في الزواج ولا حتى في مجرد ان تكون له ذرية .

والقومندان كان رجلا عظيما في نظر اهل قريته ، فقد كان واحدا من ملايين الفلاحين الكسالى القانعين بالجوع وبالاغا والاقطاع ، يعيش كما يعيش اخوته واصدقاؤه ومعارفه وكل الفلاحين الاخرين ، وكما كان يعيش ابوه وجده ، يعمل في الحقل كالثور ، ويأكل كثيرا ويترثر اكثـر ويخاف من الاغا ويرتعد امام الاقطاع ويعود متعبا كل مساء الى البيت

(١) قومندان كله تركيه معناها القائد (٢) و (٣) من مناطق مدينـة انقـره .

ليكون السيد المطاع ولينام مع امرأته كالحيوان ثم يضربها بقسوة لا لشيء الا لانها لا تنجب له البنين .

ثم كان واحدا من الذين جندهم السلطان في الجيش فانخرط فيه يتعلم حمل السلاح ليدافع عن السلطان وامجاد السلطان وحريم السلطات وحارب اعداء السلطان وابلى بلاء حسنا ولكنه كان يفكر وهو يحارب ... لماذا احارب ؟ ولاجل من ؟ الاجل السلطان ؟ ولماذا لا يحارب هو معي بنفسه ؟ اليس رجلا ؟ ولماذا لا تنجب امرأته الا البنات ؟ ووصلت القرية اخبار عنه وعن شجاعته وعناده وقوة الثور وصبر الفلاح الذي عنده واصبحت هذه الاخبار بعد كثير من المبالغات حكايات يسهر الصغار كل ليلة ليستمعوا اليها من امهاتهم . فالحديث عن القومندان الذي صار وزيرا واصبحت بنت السلطان زوجته كان خميرة طيبة لاحلام الصغار في وقت كان فيه القومندان يتمزق في الوحل ويتحدى الجوع وتمزق اسئلته رأسه اشلاء .. لماذا لا تنجب امرأتي الا البنات ؟

ثم عاد القومندان الذي لم يصبح قومندان ابدا الى قريته والى ارضه يحرثها ويرويها بالعرق وينتظر الحصاد ويحترق تحت الشمس ويدعو الله ان يبارك له زرعه ، وتعود الفلاحون رؤية القومندان يعمل في الحقل كل يوم مثل الاخرين ونسوا احتفالهم به كالابطال عند عودته، وتزوج القومندان بنتا صغيرة لتنجب له ولدا حلم بانه سيجعل منه قومندانا بحق او على الاقل طبيبا او مهندسا او حتى موظفا من موظفي الحكومة .

وانجبت له زوجته الصغيرة « مولود » ولكنه مولود لم يكن يستطيع ان يكون الا فلاحا مثل ابيه ، فهرب من المدرسة وتسكع في طرق القرية وتزوج بنتا صغيرة حلوة ثم ذهب الى الجيش ولكنه لم يتعلم السلاح ولم يستطع احتراف الجيش فعاد الى بيته فلاحا ، وعمل في الحقل ثانية ولم يستطع الاستمرار في انتظار خير الارض فلم يكن يعرف الدعاء ولم يكن يستطيع نسيان اضواء المدينة والبنات الشقراوات والشوارع التي تلمع كالمرايا ، فحمل زوجته الى المدينة باحثا عن الحياة وترك زوجته في البيت الذي بناه على التل الذي يشرف على شرق المدينة ومشى وحده في الشوارع التي تلمع كالمرايا ونام مع البنات الشقراوات ، ولكن المدينة لم تعطه غير الجوع والتشرد والتقلب من عمل لاخر . اما هرب زوجته مع عشيقها فهي حكاية لا يريد الا نسيانها .

وتوقف قليلا ونظر الى مدخل دار للسينما والى الاعلان الملون والى صور الممثلين وصورة الممثلة الشقراء وهي ترقد في سكينة بين احضان بطل الفلم وهي عارية ... ولعق شفتيه ... غدا السبت ... اذن فيوم الاحد ليس ببعيد ، ولكنه تنبه الى نفسه مع قطرات المطر الذي كان قد بدأ يهبط .. والورقة التي في يديه تكاد تتمزق فوضعها في جيبه وواصل دفع عربته وبصق على الارض وسار وهو يريد ان ينسى كل شيء عن ابيه القومندان وعن قريته والسيقان البيضاء التي يحلم بها ، وراح يفكر ثانية في ضريبة البلدية ، ومشى وقد قرر الا يمر ذلك المساء على البقال مع انه كان جائعا ، وفي شوق الى جرعة عرق تنسيه كل شيء.

انقرة ـ تركية

صلاح بزركان

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

قلق

قلـق
أعيش في قلق
كم اكتوي به كم احترق
خواطري أسراب جن فوق رأسي حائمه
تعضني ، تنهشني
فخافقي مزق
تحبسني
في قمقم مقيداً مرنحا
تجلد عقلي في نفق
فليس لي من واحة من منطلق
غيـر القلق !

***

قلـق
يعصف بي صبحا ويفنيني مسا
أسبح في دوامة
مهوما وناعسا
أرى جمال الكون قبحا
ثم اغفى مستطارا يائسا
من حيرة تمضني .. تأكلني
ومن تمزق يشدني
كأنني حزمة اوراق ذوابل لقي
مـن القلق !

***

مستقبلي ؟
خرافة أعيشها في حاضري
وحاضري ؟
أسطورة يلفظها ماضي وهما كاذبا
مهامها خرائبا
ليس بأيام حياتي ورقه
مخضره
شذية مزوقه
لكن عيني أبدا مغرورقه
وخافقي يجذب كل صاعقه
تسلق المأساة وارتمي بقعر الهاويه
ينعق كالبوم وكالغربان في
أبعاد روحي الموحشة
ولا صـدى
غيـر القلق !

حسن عبد الله القرشي